حول إختلاف الجامعات النظرية
فى دراسة الأدب

د. عبد السلام ابو النجا سرحان

سألنى أحد الباحثين فى الأدب — بعد أن قرأ بعض كتبى واطلع على بعض بحوثى فقال :

« اتجاه الجامعات النظرية فى دراسة الأدب تسير فى مسالك مختلفة، فهل لى أن أعرف رأيكم فى هـذا الشأن ؟ ، ثم ما الطريقة المثلى التى ترتاحون إليها فى تلك الدراسة ؟ ..

وكان جوابى على هذا السؤال :

من الأمور الطبيعية ـ والحياة الثقافية على ما هى عليه فى البلاد العربية ـ أن تختلف المسالك ، وتتجانف الطرائق وتتعدد المناهج ، وتتلون الأساليب.

ذلك أن الشرق العربى — فى ظل الاستعمار الغربى ـ تعرض لهزات عنيفة أقضت مضاجع أهله ، وبلبلت أفـكارهم ، ووجهتها اتجاهات خطيرة أدت إلى هذا التباين البادى بين المناهج والخطط المتعددة فى دراسة الأدب العربى .

ولن نظلم التاريخ الصادق إذا قررنا أن موجة الاستشراق كانت عاتية ، وأن كثيراً من المستشرقين من رجال الدين المسيحى الذين انشحوا برود البحث العلمى ، وموهوا ـ على الغافلين الغافلين من أبناء الشرق — بهذا الزبرج اللامع والبهرج الساطع والزخرف الأخاذ ، وكانت أهدافهم البعيدة إلقاء الشكوك وبث الريب فى دارات الفـكر العربى وآفاق البحث الأدبى ـ خاصة فيما يتعلق بجعل القرآن الكريم هو المصدر الأدبى الجاهـلى الموثوق به ...

لأنه من تأليف الأديب العبقرى محمد الذى استطاع بقدرته وثقافته واطلاعه على الكتب السابقة أن يأخذ منها وينقل عنها ثم يزعم أن كتابه هذا من عند الله وأنه نبى رسول !!! .

ثم عنوا بعد ذلك بصب هذا الهراء فى الآذان ليستقر فى الأذهان ... ولو عن طريق فريق من أبناء المسلمين !!

ومن الحقائق المعروفة أن خطة شيطانية وضعت لتنصير المسلمين بوساطة المستشرق « زويمر » عن طريق العلم والثقافة ، وكان مجال التنفيذ الأول تلك المدارس التبشيرية التى انتشرت كالوباء فى ربوع البلاد الإسلامية والعربية وبتشجيع السلطات الاستعمارية ذوات النفوذ البعيد فى تلك البلاد ، واستخدام خريجيها فيما بعد فى تنفيذ خطة هذا الشيطان - خاصة فى مصر وسورية ولبنان عندما يتولون مقاليد الأمور فى الريادة والتوجيه الثقافى العميق .

وقد صحب هذا الارتكاس السياسى انتكاس فكرى ... عند بعض المتخرجين فى مدارس التبشير أو الجامعات الأوربية الأمريكية - الذين أخذهم البهر بما رأوا هناك ، وخدعهم المظهر الذى شاهدوه فربطوا — بجهالة — بين الأوضاع العسكرية والحضارية فى الغرب ... والضعف السياسى والتخلف العلمى فى الشرق ، ونسبوا ذلك — دون خجل أو حياء — إلى الأصباغ الإسلامية والعربية التى اصطبغ بها العرب والمسلمون .

ومن هنا استمدوا من آراء المستشرقين - وأكثرهم من رجال الدين اليهودى والمسيحى - الذين أعملوا معاول الهدم والتخريب فى النظم الإسلامية ، استعملوا طرائق التشويه - بعد التمويه - لخطط المسلمين ومناهجهم وآرائهم العلمية والأدبية فى القديم والحديث وأنكروا الشعر الجاهلى ، وهجنوا الآراء والبحوث والنظريات العربية والإسلامية أمام الناشئة المسلمة ، وهجموا التشريعات القرآنية ، وعرضوا بحياة الرسول الكريم ، وصوروا الأمة العربية أمام

أبنائها بأنها أمة متخلفة ، ونهبوا من غرب الثقافة الإسلامية وتراثها وقفوا عامدين من حدها ، وتلموا آثمين من شباها .

والواقع أن المقصود الأول بهذا التشويه للإسلام ونظمه والحط من قيمة المسلمين .. هو صرف عقلاء الغربيين عن الإسلام الحق، وصد تيار الإعجاب به والإطراء له حينما ظهر على أقلام الكتاب المنصفين للاسلام ونبيه ... حتى لا ينتشر ذلك الدين الحى بين هؤلاء المعجبين وأولئك المطرين .

وبقوة السلطان الاستعمارى القاهر قرب الحكام هؤلاء المتغربين من أبناء المسلمين ، وساعدوهم وساندوهم ، ومكنوا لهم من الجيد ، وأسلموهم المقاليد ، فكان هذا الخبث والعبث ، وامتـــد أخطبوط العبث والفساد الكبير ... الذى نقله هؤلاء عن الفكر الغربى المسفر بالعداء للاسلام وتراثه ونبيـــه .

وعلى هذا الاساس عوديت اللغة العربية واستبدلت بها فى التدريس اللغات الغربية ، وأصبح الأديب العربى الصادق شبه غريب بين لداته وأنداده ، وقفز كثير من المتأدبين على مائدة الغرب فوق أسوار الحياة المادية والاجتماعية . لأنهم طعنوا فى الأدب العربى ، ورددوا كلام المستشرقين الذين أنكروا الشعر الجاهلى ، وطلبوا من طلابهم نقد القرآن على أنه كتاب كالكتب القابلة للنقد والتشريح !!!

كذلك طعن هؤلاء كسادتهم فى الرواية والرواة ، وانتهى الأمر إلى أن أصبح كثير من الذين ظهروا على السفح سدنة لكعبة الأدب وعمـــداء له فى كثير من الأحيان !!! .

ثم زاد الطين بلة والخرق اتساعا أن عمل كثير من هؤلاء المستغربين على نشر المصطلحات العلمية والأدبية الأوربية وترك الكلمات العربية الصافية

الفنية فى ميدان التحرير والتسطير والتعبير .. حتى لقد نرى كثيراً من الذين لا يعرفون اللغات الأجنبية يولعون بذكر بعضها فى مكان الألفاظ العربية . مع أنها أليق وألبق وأطلق وأحق وأصدق فى الدلالة على المراد أمام جمهرة القارئين !!!

ثم اشتدت حركة الاستهانة باللغة العربية فامتلأت الكتب والصحف والمجلات والأحاديث الإذاعية . المسموعة والمرئية .. بالكلمات والتراكيب التى تنكرها اللغة العربية الصحيحة وأساليبها الفصيحة ، التى تتأباها معاجمها العلمية وكنوزها الذهبية ، وحملا لكثير من المستهترين بالتغير والمولعين بالحديث من التعبير أن يخترعوا كلمات ويبتدعوا عبارات ، ويفترعوا أساليب وتراكيب ما أنزل الله بها من سلطان .

ثم تعدى الأمر إلى حملات صليبية على الشعر العربى والشعراء العرب ، ونشأ مايسمونه « الشعر الحر » و « الشعر المرسل » ، وكان لعصابة شعراء المهاجر - ذوى اللون الدينى الخاص - فضل الأمر البعيد المدى على الأسلوب الفصيح ، وأخذ التقليد الأعمى بطيل باعه ويمد ذراعه كى يعمل الهدامون - فى تحد وصلادة - للقضاء على عمود الشعر العربى ، والخروج من البوتقة التى تصهر عظام الجاهلين وتفرى صنيعهم الأثم ، وتنزل إلى ساحة أدب العوام والأميين .

وكان لهذه الاتجاهات الصليبية والاستعمارية — التى خدعت كثيرا من السذج — أصداء بعيدة المدى فى إيقاظ الطاقة الأدبية العربية من سباتها العميق ، وتحريكها من توفقها الدقيق ، فهب كثير من ذوى البصر والبصيرة ليكبحوا جماح النادين الشاردين ، وارتفعت أصوات الصفوة من الأدباء أن يحرروا الأدب العربى - بل والمعارف العربية — من هذه الأدران ، وأن يفصموا عرا هذا الاتجاه القاتل فى ربط الأدب العربى بالأدب اليونانية

والرومانية والاوربية الحديثة ، وتحكيم ما قاله أرسطو عن الشعر الملحمى والقصصى والوحدة العضوية أو الموضوعية فى الأدب العربى دون بحث أو دراسة ، وكذلك فى ربط البلاغة العربية ببلاغة اليونان أو الفرس أو الهنود أو غيرهؤلاء وأولئك .

كذلك تنبه عدد من الباحثين إلى خطورة ما يسمى « الشعر الحر » على الناشئة العربية فهجموا هذا الهراء المسمى شعرا ، وشجبوا ذاك الهباء المدعى أدبا ، ونادوا فى البلابل الصادحة بالشعر أن يعزفوا على قيثار الأدب العربى الرصين .

ومن هذا العرض السريع يبدو رأيى فى الطريقة المثلى التى يجب انتهاجها فى دراسة الأدب العربى الذى هو جزء لا يتجزأ من كياننا ، وجهاز حساس فى تعبيرنا ، وطريق معبد إلى فهم قرآننا الذى يربط لغتنا به اقوى الوشائج وأمتن الأمشاج .

إن أدبنا العربى يمثل تراثنا الخالد ، وحركتنا المتموجة على سفح الحياة ، وبقاؤه صحيحاً ونماؤه فصيحاً يحكم صلتنا الحتمية بالقرآن الكريم ... دستور حياتنا ومنهل وجودنا وقانون بقائنا وأساس تشريعنا ... بل ومصباحنا المتوهج الذى نهتدى به دائما سواء السبيل .

فأى تحلل أو تآكل ، وأى ضعف أو وهن أو خذلان يصيب لساننا الأدبى وتعبيرنا العربى يمزق أشلاءنا ويشقق بناءنا ويمزق وحدتنا ويحرمنا من هذه المائدة الحافلة بأطباق الحسن ، والمجد والخلد ، والجمال والجلال .

ومن واجبنا أولا وبالذات : الحفاظ على هذا التراث ، والتزام هـــذا الأساس ، وأن نبنى عمائر حاضرنا على قواعد ماضينا ... لأنه طريق حياتنا المعهد ، وسبيل نجاتنا المعبد ، ومحور وجودنا الحى فى دارات البقاء .

ومن الحتم علينا أن نفتح لأبنائنا وبناتنا أكمام هـــذا الماضى المشرق ، وننشر روحه وريحانه ... حتى يشموا عبقه ، وينشقوا عبيره ، ويتأرجوا بشذاه ، مع توهجات أطواره وتوهجات أسراره وانبلاجات أشعته فى الأفق البعيـــد .

يجب أن ندرس أدبنا بالوسائل التى تقرب بيننا وبين ذلك التراث ، وأن نحافظ على بهائه وسنائه ، ورونقه وروائه ، ونجلى لشبيبتنا صفاءه ونقاءه ونكشف لهم عما فيه من صور أدبية مشرقة ، وطاقات بيانية مترقرقة ، ورسوم أسلوبية تنضح بالفوق والفلق ، وتنفح بالأرج البلاغى فى كل اتجاه .

إن الحائل الأساسى بين أبناء العروبة وأدبهم الأصيل هو تلك الغربة المؤسفة بينهم وبين لغة الآباء والأجداد ، حتى كأنهم من دونها فى إصاد... لأنهم يجهلون أساليبها العذبة ، وتراكيبها الرطبة ، وهواءها العليل ، ونسيمها البليل ، وماءها العذب السلسبيل ـ والناس أعداء ماجهلوا ـ فلا بأس أن يسخطهم جهلها ، يغضبهم جلالها ، فيصدفون عن حماها ، ويعزفون عن قلاها ، ويعافون سلافها الرائق ، وخمرها الفائق ، وسلسلها الرقراق .

ولقد ساعدهم على هذه الجهالة دراسة المواد العلمية فى الجامعات وبعض المدارس الخاصة باللغات الأجنبية ، والنظرة المرموقة لخريجى تلك المدارس ، والمعاملة الواقعة للدارسين بلغة الخواجات فى كل مجال ... وهو هوان وصغار مابعدهما هوان وصغار .

إن هناك دون شك ، عوامل معادية للغة العرب ، ومعاول هدامة لآدابها ذوات أوجه استعمارية ، ألسنة صليبية وأنشطة تخريبية لهذه اللغة الذلول التى اصطفاها المولى تبارك وتعالى ، لتكون لغة كتابه الكريم ، وعامل وحدة بين المسلمين على مستوى عالمى وتاريخى مديد .

وعقيدتى أن الأذهان الرائدة والعقول القائدة بين زعماء أمتنا متنبهة إلى ذلك ، فطنة إلى ما هنالك ... من تآمر وتدبير يقصد به التدمير .

على أنه لا خلاف بيننا فى وجوب الاستفادة من الفكر الغربى فى محيطنا الأدبى ... خاصة البحوث والدراسات التى تأتى عن طريق المعتدلين غير المتعصبين من أدباء الغرب ومفكريه .

ومن واجباتنا الأولى التنبه لتلك المحاولات الجادة الدائبة التى تتأبى حطم اللغة العربية وتقصد إلى هدمها والقضاء عليها ... سواء عن طريق سيادة العامية أو كتابة لغتنا بالحروف اللاتينية كما اقترح بعض المغرورين .

وقد لمسنا عن كثب خططاً موضوعة بدقة وإحكام للقضاء على قداسة لغتنا وأهميتها فى حياتينا الدينية والدنيوية عن طريق مايسمونه « الدراسات الحرة » أو « البحث العلمى » الذى لم يستح أن ينكر وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ويزعم أنهما خرافة من الخرافات .

إن الذى يحاول أو يساعد أو يعاضد أو يساند فى طمس معالم هذه اللغة والقضاء عليها ... بل وعلى قداستها . بين العرب والمسلمين خليق ألا يكون عربياً وحرى بألا يكون مسلماً ... بل جدير بألا يكون مؤمناً صادق الإيمان

فعلى دارسى الأدب العربى فى الجامعات العربية أن ينخلعوا من هذه الربقة الأجنبية ، وينظروا إلى أدبنا نظرة فاحصة تمنحه الحق الأول فى الاستقلال التام عما سواه ...

عليهم أن يستضيئوا بالمصابيح العربية التى استمدها الآباء والأجداد من وحى اللسان العربى المبين ؟